الطفولة المسعفة من منظور قرءاني

د.رمضان يخلف
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقدمة:

حفل القرءان الكريم بذكر الطفولة واعتنى بها أيما عناية، وإذا كان مصطلح الطفولة لم يرد بهذا اللفظ الصريح في القرءان الكريم أكثر من أربع مرات، فإنه ورد بمرادفات أخرى لا تدل إلا عليه، مثل لفظ الأولاد والبنين والغلمان وذلك فيما يزيد عن المائتي موضع من القرءان الكريم، وارتبط ذكر الطفولة في القرءان الكريم بذكر الأسرة والعلاقة بأفرادها من آباء وأمهات وإخوان وأخوات، ومن هنا نتبيّن أهمية الطفولة ومكانتها في القرءان الكريم، مما يدفعنا لبحث هذا الموضوع من زاوية قرءانية، والتأمل فيما قرّره من حقوق ومكانة للطفولة، عسى أن يكون مرجعا وسندا في خدمة الطفولة المسعفة، وترشيد النهوض بهم، والأخذ بأيديهم، لتحسين وضع هذه الشريحة من المجتمع ما أمكن.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا رأى علامات الذكاء والفطانة والتميز في بعض الأطفال اهتم بهم وقدّمهم وحرص على تعليمهم، بل وتقليدهم المهمات الثقيلة مثلما فعل مع أنس بن مالك ، وعلي بن أبي طالب وزيد بن حارثة، وأسامة ابن زيد، وعبد الله بن عباس وغيرهم كثير ممن نالوا حظهم من الصحبة مع خاتم النبيين وهم لم يبلغوا سن العاشرة من سنهم.

وسار الخلفاء الراشدون على هذا النهج من بعدهم فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أيام خلافته يدخل عبد الله بن عباس في مجلس الشورى ،ولما غضب بعض القوم امتحنه أمامهم، فلما علموا رجاحة عقله أذعنوا وتقبلوا ما فعله عمر رضي الله عنه.

الطفولة قبل الإسلام

قبل أن نعرف مكانة الطفولة في الإسلام من خلال القرءان الكريم، نرى من الحكمة أن نعرف الوضع الذي كانت عليه الطفولة في عصر الجاهلية،

أو ما قبل الإسلام، لأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقول:(من لم يعرف الجاهلية لم يعرف الإسلام)[1]

لم تكن الطفولة قبل الإسلام أوفر حظًّا من غيرها من مختلف الشرائح الاجتماعية، بل كانت أحد المظاهر المنحطة التي تتجلى فيها الجاهلية في صورتها القاسية والمتوحشة.

وقد بلغت كراهة الولد إلى حد الوأد ، حيث (كانت ظاهرة الوأد منتشرة في قبائل العرب قاطبة، فمنهم من يئد البنات لمزيد من الغيرة، ومخافة أن يلحق العار بهم من أجلهن، ومنهم من كان يئد البنات تشاؤما منهن ، ومنهم من كان يقتل أبناءه من شدة الفقر أو خوفا من وقوعه بسبب كثرة العيال، حتى قال بعضهم وهو صعصعة بن ناجية : جاء الإسلام وقد فديت ثلاثمائة موءودة، ومنهم من كان ينذر إذا بلغ أطفاله عشرة نحر واحدًا منهم قربانًا كما فعل عبد المطلب ، ومنهم من يقول البنات لله تعالى والذكور لنا، فيقتلون البنات ليلحقوا بالسماء لأن الله تعالى أحقّ بهن..)[2]إلى جانب مظاهر الرق والعبودية التي كانت تطبع الحياة العربية على غرار ما هو سائد في الأمم الأخرى يومئذ، فكانت الطفولة قد نالت حظها من عالم النخاسة والاتجار بالرق، وقد حدثنا القرءان الكريم عن بيع نبي الله يوسف عليه السلام وهو طفل يافع لم يبلغ سنه عشر سنوات، فقال: **(وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (20) وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ..(21))**[3] وما أن جاء الإسلام حتى وقف في وجه الاستعباد رافعا المقالة الشهيرة (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا)[4]

كما عرفت الطفولة إلى جانب ذلك ألوانا من الظلم الاجتماعي في الجاهلية صوّرها القرءان الكريم في مثل قوله تعالى: **(كَلَّا بَل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ**

---

[1] أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه: 440/6، وابن سعد في الطبقات الكبرى:129/6، والبيهقي في شعب الإيمان:69/6, والحاكم في المستدرك على الصحيحين: 475/4

[2] . نقلا عن أبي الحسن الندوي ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، مكتبة رحاب، الجزائر،ط 10 ، 1987، ص: 60.

[3] سورة يوسف، الآية: 19 ـ 20.

[4] وهي كلمة مشهورة قالها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لوالي مصر في عهده في حادثة سباق الخيل المعروفة.

(17) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (18)[1] وقوله تعالى كذلك:" **إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (10)**[2]

وكانت فئة عريضة من الطفولة في العصر الجاهلي مجهولة النسب ، وقد جاءت إلى الوجود عن طريق الصلات غير المشروعة بين الرجل والمرأة، لأن الأعراف الجاهلية كانت تبيح ذلك، وتتعامل به على نطاق واسع، فمن ذلك ما رواه البخاري في صحيحه في كتاب النكاح عن عائشة رضي الله عنها أن النكاح قبل الإسلام كان على أربعة أنحاء..منها أن يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة، كلهم يصيبها ، فإذا حملت ووضعت، ومرّ عليها ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع أحد منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان، تسمي من أحبّت باسمه فيلحق به ولدها، ولا يستطيع أن يمتنع ممن جاءها، وهن البغايا، كنّ ينصبن الرايات تكون علما على أبوابهمن..)[3]

وكانت القلة القليلة من الطفولة فقط ـ من أبناء الأسر الشريفة والغنية ـ هي التي تلقى حظوة ورفاهية في العيش والمعاملة، والكثرة الغالبة تلقى الخسف والهوان والذلة والحرمان في صنوف المعاملة.

الطفولة في الإسلام

ولما جاء الإسلام وبسط هدايته على الناس كافة ، وأصابت رحمته المسلم وغير المسلم، والصغير والكبير، والذكر والأنثى، فكان من الطبيعي أن تلقى الطفولة حظها الواسع ومكانها اللائق في ميزان القرءان، ونحن اليوم إذا رجعنا إلى القرءان الكريم وفحصنا آياته بروح العصر وحاجاته، وجدنا أن الطفولة قد نالت من عنايته ورعايته فوق ما نتصور..

[1] سورة الفجر ، الآية: 19 ـ 20.

[2] سورة النساء، الآية : 20.

[3] أخرجه البخاري ، كتاب النكاح، باب من قال لا نكاح إلا بولي.

ونظرا لما حظيت به الطفولة في ميزان الإسلام فقد عرفت حقوقها منذ فجر الدعوة النبوية، وتقررت هذه الحقوق بنصوص صريحة من الكتاب والسنة، ومن هذه الحقوق ما يأتي[1]:

الحق الأول: حق اختيار الأم الصالحة العفيفة الشريفة

إن العناية بالطفولة تبدأ في الظاهر من مرحلة الحمل ، أو مرحلة تكون الجنين في بطن أمه، وقد لا نكون مبالغين إذا قلنا إنها تبدأ في حقيقة الأمر قبل تلك المرحلة، فهي تبدأ من اختيار الشريك الصالح في بداية الشروع في بناء الحياة الزوجية، ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما قال:" تخيّروا لنطفكم فإن العرق دسّاس"[2] فهو في ذلك صادر عن رؤية قرءانية[3] مستلهمة من قوله تعالى: **(وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ.. (32)**[4] وقوله تعالى:(**الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) (3)**[5] وقوله تعالى أيضا:" **وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ** (26) [6] فكان من حق الطفل على أبيه أن يختار له الأم التي تكون له مستقبلا مصدر فخر واعتزاز لا مصدر ذل وصغار، وكذلك الأم عليها ألاّ تقبل إلا بالزوج الذي يشرف به أطفالها، ويسعدون بانتمائهم إليه، وهو ما تهدف إليه الآيات السابقة.

ذلك أن التجانس الديني والفكري والبيئي والاجتماعي ونحوه يعطي مساحة واسعة للثقة والتعاون والتضحية، مما يوفر للأطفال جوّا من الهدوء والتشبع العاطفي والتوازن الفكري، وهو ما ينعكس بدوره على بنائه العقلي والجسماني وغيره.

---

[1] في حين أن الأمم المتحدة لم تكترث بمكانة الطفولة والاحتفال بمكانتها إلا في نهاية القرن العشرين للميلاد حيث دعت دول العالم جمعاء لجعل عام: 1979م عام الاحتفال بالطفولة، انظر الطفولة في الإسلام، لحسن ملا عثمان، طبعة الرياض، 1982، ص: 15

[2] كما أخرجه ابن ماجه بلفظ:" تخيروا لنطفكم وأنكحوا الأكفاء وانكحوا إليهم " انظر سنن ابن ماجة: كتاب النكاح باب الأكفاء 1/ 632، طبعة دار الكتاب المصري.

[3] انظر جامع البيان للطبري : 10 / 166، وتفسير القرءان العظيم لابن كثير : 5 / 56.

[4] سورة النور، الآية: 32.

[5] سورة النور ، الآية:3

[6] سورة النور ، الآية:26

الحق الثاني : حق الحماية وهو جنين

أما مرحلة الحمل فلا تختلف الشرائع السماوية مع القوانين الوضعية في التنويه بأهميتها، وبموجب هذه الأهمية البالغة لهذه المرحلة صار للمرأة الحامل حقوق مادية ومعنوية أثناء الحمل حماية للجنين الذي تحمله في أحشائها فصار لها حقوق إضافية في الرعاية الطبية والغذائية والنفسية وغيرها ..

ذلك أن القرءان الكريم عندما قال:(**حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ**..)[1] فهذا الوهن الذي يعتري المرأة في فترة الحمل هو الذي رخّص لها في حق الإفطار في شهر رمضان شهر الصيام، كما يوجب إعفاءها من الأعمال التي تلحق الضرر بها أو بجنينها.

فالعناية بالطفل إذًا تبدأ برعاية أمه، ومن أجل ذلك شرع القرءان الكريم حماية الأم من كل أذى أثناء حملها وحتى في فترة الرضاعة، وإن الأم مهما ارتكبت من مخالفات توجب القصاص أو أي نوع من أنواع العقوبات وهي حامل، فإن حملها يحول بينها وبين العقوبة حتى تضع حملها، وتتم رضاعته، فيمكن ساعتئذ تطبيق العقوبة المقررة في حقها.

وإن ما تفعله بعض من أمهات اليوم من تناول الأشياء الضارة من كحول وتدخين ومواد مضرة على اختلافها هو جناية واضحة على جنينها، وتتحمل كامل المسؤولية ديانة وقضاء في ميزان القرءان تجاه كل سلوك من هذا النوع وما يترتب عليه من أضرار متفاوتة.

الحق الثالث: الحق في الحياة

إن حق الطفل في الحياة تبدأ في حقيقة الأمر من بداية تشكله في بطن أمه، ولكن الذي أكده القرءان الكريم وعظّم من شأنه هو تلك الحقوق التي تترتب بعد الولادة.

إن الولادة تعني انفصال الجنين عن أمه، وبذلك صار يتمتع بوجوده الاستقلالي، وهنا تتعّين له حقوقه الشخصية التي أمر القرءان الكريم بحفظها، مثلما أطبقت المواثيق الدولية على حمايتها وإعداد التقارير الدورية لمتابعتها وتفعيلها، لأن الطفولة ستظل تمثل الأمل، وتمثل الغد القريب المرتقب، ومن أراد أن ينظر إلى ملامح المستقبل مجسدا بين عينيه في مجتمع ما، فلينظر إلى الطفولة في ذلك المجتمع، ونظرا لما للطفولة من حق في التنشئة والرعاية والحفظ، فقد جعل الله تعالى ذلك أمرا فطريا وغريزيا في الأبوين، فلا يحتاج إلى تكلّف أو توصية، وقد قرر القرءان الكريم هذه الحقيقة في مواضع كثيرة

[1] سورة لقمان ، الآية: 13

منها قوله تعالى: **(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ.. (14)**[1] وقال: **(إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ..)** [2]

مشهد مؤثر في حياة نوح النبي وابنه الكافر

فالأنبياء وهم يمثلون رمزا للأبوة المثالية والسوية نراهم يتصرفون بفطرتهم السوية في حماية الطفولة والسعي في إنقاذها من كل مكروه ولو طغى عليهم الفساد والانحراف في أبشع مظاهره، وهل هناك فساد أكبر من الكفر، ومع ذلك فإننا نرى نبي الله نوح عليه السلام كم كان حريصا على نجاة ابنه الذي كان في صفّ أهل الكفر والشرك، ومع ذلك حاول أن يشفع له عند ربه عندما حلّ الطوفان بقومه ، وقد عرض القرءان الكريم هذا الموقف في مشهد مؤثر تنفطر له القلوب ، وتجهش له العيون بالبكاء ، فقال:**(وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (42) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (44) وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (45) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (46)**[3]

الحق الرابع: الحق في التربية والتأديب

فالنصوص في ذلك كثيرة ،وأعظمها أثرا قول النبي صلى الله عليه وسلم:" مامن مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه و ينصرانه و يمجسانه.."[4]

وفي فضل التربية والتوجيه نقرأ قوله تعالى : **(إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ..)**[1] وقوله : **(قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ)**[2] وقوله

[1] سورة آل عمران، الآية: 14.

[2] سورة التغابن، الآية: 15.

[3] سورة هود ، الآيات: 42 ـ 46.

[4] رواه مسلم في الجامع الصحيح ، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، ص: 1095.

تعالى:(**وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (74)**[3]

وفي السنة منها ما رواه أبو داود وغيره :" ما من رجل مسلم رزقه الله ثلاث بنات فأحسن تربيتهن وتأديبهن إلا أدخله الله الجنة.." وقوله صلى الله عليه وسلم:" مروا أبناءكم بالصلاة وهم أبناء سبع واضربوهم عليها وهم أبناء عشر وفرقوا بينهم في المضاجع" ولا تقتصر التربية على الجانب الخلقي فقط، بل تمتد لتشمل الجانب المهني والمهارات المختلفة التي تؤهله لخوض غمار الحياة ، وهو ما نفهمه من قوله صلى الله عليه وسلم:" علموا أبناءكم الرماية والسباحة وركوب الخيل" والنصوص الشرعية المتعلقة بتربية الأطفال كثيرة ومستفيضة.

الحق الخامس: الحق في العدل بين الطفل وإخوته الآخرين في العطية والهبة

فمن حق كل طفل على أبويه أن ينال من العطية والهبة مثلما يعطي غيره من أفراد الأسرة، والشاهد في ذلك ما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن النعمان بن بشير أنه أراد أن ينحل أحد أبنائه حائطا ـ أي بستانا ـ فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأراد أن يشهده على هذه الهبة فسأله الرسول إن كان له أبناء آخرون، ولما علم أن له أبناء آخرين أعرض عنه وقال له: اللهم لا تشهدني على قسمة ظالمة.

الحق السادس: الحق في توفير قدر من الثروة لهم لمواجهة الظروف الطارئة

إن حقوق الطفل على والديه تمتد إلى ما بعد وفاتهما ، فعلى الوالدين وجوب التصرف الحسن في ثروتهما بالادخار والاحتياط لما قد يطرأ من الموت المفاجئ لأحدهما أو كليهما، فلا يترك أطفاله في العراء من غير سكن أو نفقة أو مورد للرزق يقتاتون منه، وقد أكد القرءان الكريم على هذا الحق في أكثر من آية، منها قول تعالى:(**وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (9)**[4]

---

[1] سورة التغابن ، الآية : 15.

[2] سورة التحريم ، الآية: 6.

[3] سورة الفرقان ، الآية: 74.

[4] سورة النساء ، الآية: 9.

وقوله تعالى:(**وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ..(82)** [1].

فهذه بعض الحقوق الأساسية التي قررها القرءان الكريم ونادى بها منذ قرون طويلة قبل أن تنادي بها المواثيق الدولية في المجتمعات الحديثة، وهناك حقوق أخرى سكتنا عنها لشهرتها، ولولا أن يطول البحث لعرّجنا عليها.

نظرة القرءان الكريم إلى الطفولة المسعفة

إن الأطفال الذين يدخلون تحت مسمى الطفولة المسعفة ليس كلهم في وضعية متشابهة، فمنهم اليتامى ، ومنهم ضحايا التفكك الأسري ، ومنهم ضحايا الفقر والجهل والانحراف، وهذه الوضعيات كلها وإن اختلفت أسبابها نعتبرها وضعيات طبيعية يمكن التكيف معها ، وتقديم الخدمات المناسبة لها سواء من طرف مؤسسات الدولة أو مؤسسات المجتمع المدني أو المبادرات الفردية المختلفة.

وتبقى الوضعية الحرجة التي لا تقبل علاجا وهي الطفولة مجهولة النسب، فالحل الجدّي والجدري هو أن نسلك المنهج الوقائي للقضاء على هذا الظاهرة أو التخفيف والتضييق منها ما أمكن.

إن الأطفال المسعفين من اليتامى والمشردين بسبب الفقر أو التفكك الأسري أو أي أسباب اجتماعية أخرى ينظر إليهم المجتمع في العادة نظرة الشفقة والرحمة، ولا يتردد أحد في طلب التكفل بهم والحنوّ عليهم ، وإذا تحققت له الكفاية المادية فإنه سرعان ما تلتئم أحواله الاجتماعية ويندمج في محيطه، وتنتهي معاناته سواء أكان ذكرا أو أنثى.

أما الأطفال المسعفون من مجهولي النسب فإن أحوالهم المادية والمعنوية ستظل معقدة في كل أطوار حياتهم، بل كلما تقدم بهم العمر كلما ازدادت معاناتهم ، ولا يملك أحد مفتاح الحل لمعاناتهم، فالمجتمعات على اختلاف ثقافاتها وأعرافها لا تزال منذ القدم تنظر إلى هذه الفئة نظرة ازدراء وانتقاص بغضّ النظر عن كونهم مذنبين أو غير مذنبين، بل ستظلّ هذه الفئة تشعر بالنقص والحيرة والنقمة على المجتمع من حولهم ، ولا تستطيع أية جهة كانت أن تعوّضهم عمّا حرموا منه.

بعض الحلول المقترحة

[1] سورة الكهف ، الآية: 81.

إن الأطفال المسعفين بحكم وضعهم الاجتماعي غير العادي يكونون قد فاتتهم أشياء بالغة الأهمية والحساسية مما يتمتع به غيرهم من الأطفال، ومن هنا وجب على المجتمع التفكير في توفير أجواء مميزة ورائدة لتعويضهم عن الأضرار اللاحقة بهم من جراء ذلك الوضع غير العادي كما سبق أن قلنا، وفي هذه الحالة لا نكون قد أنقذناهم من الانحرافات والفشل في الحياة فقط، بل نضمن لهم النجاح والتفوق والامتياز، عسى أن يكونوا شريحة إيجابية، ولا يكونوا عبئا يثقل كاهل المجتمع، ومصدرا من مصادر تفككه وعدم استقراره.

الشرط الأول: إتباع المنهج الوقائي في علاج وضع الطفولة المسعفة

ونقصد بذلك محاصرة الظاهرة والعمل ما أمكن على تجفيف منابعها للتقليل من عدد أطفال الشوارع بكل أصنافهم، ولكن يأتي في المقدمة الأطفال غير الشرعيين، لأنهم يمثلون المشكل الرئيسي والحساس في مكونات هذه الظاهرة , وهي ظاهرة غريبة عن مجتمعاتنا فقد عرفت البلدان الإسلامية على اختلافها محاضن اليتامى[1] عملا بقوله تعالى:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (218)[2]

وتكرر ذكر اليتيم في القرءان الكريم المكي والمدني على السواء في أكثر من خمسين موضع، ولكنه سكت عن الطفل اللقيط فلم يرد له ذكر صريح في القرءان، لن الأصل في المجتمع المسلم عدم وجوده، ولكن تحدث في موضع واحد عن حال الفرد إذا لم نعرف نسبه فقال:(**وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (4) ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (5)**

وحتى كلمة لقيط لم يشر إليها القرءان الكريم بمعناها الاصطلاحي ولو في موضع واحد، وإنما وردت بمعناها اللغوي في قوله تعالى **قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا**

[1] انظر الدكتور : حسان فرقوني، رعاية اليتيم في الإسلام ، درا الكتب العلمية، بيروت، ط1 ، 2002، ص: 195 وما بعدها.

[2] سورة البقرة ، الآية: 218.

تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (10)[1]

ذلك أن الطفل مجهول النسب إذا وجد في المجتمع سيظل يمثل مشكلة بالغة الخطورة مهما حاولنا أن نحيطه بقدر كبير من الرعاية والعناية.

وهذا المنهج الوقائي الذي نلح عليه في الحقيقة هو مستلهم من المنهج القرءاني بصفة عامة، فالمنهج الإسلامي في علاج المشكلات الاجتماعية يقوم ابتداء على عامل الوقاية، حتى إذا أفلتت عيّنات محدودة سهل التحكّم فيها، وقلّت تكلفة علاجها والتغلب عليها ، وهذا العنصر لو ذهبنا إلى شرحه وبيان أهميته لطال بنا الحديث، ولكننا نقول، إننا على استعداد لتقديم دراسة مستقلة في هذا الموضوع يتسم بالواقعية والموضوعية، يتضمن حلولا جذرية للظاهرة، ولا يبقى عندئذ إلا صدق العزيمة لإنجاحها.

الشرط الثاني : تفعيل دور الأسرة في مجتمعاتنا بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى

إن كثرة انتشار مراكز الطفولة المسعفة في المجتمع لا تمثل مظهرا إيجابيا وصحيا ، بل تمثل مظهرا مرضيا يزيد من أعباء المجتمع، وتضاعف من المشاكل التي تعيق العملية التنموية والتقدمية التي تقوم على استقرار المجتمع وتماسك بنيانه، بينما انتشار الطفولة المشردة في المجتمع يتولد عنها مشاكل ومعوقات معقدة لا حصر لها

إن حاجات الطفولة تتزايد كل يوم وتتضاعف كمًّا ونوعا، وذلك بتزايد حاجات المجتمعات المعاصرة والتعقيدات التي تعرفها بوتيرة متسارعة، فالمجتمعات القديمة كانت الحياة فيها بسيطة ، فمرحلة الطفولة كانت قصيرة وبسيطة، وبإمكان الطفل أن يبدأ مزاولة حياته العملية في سن مبكرة ضمن النشاط الفلاحي والتجاري للأسرة ومحيطه الاجتماعي، أما اليوم فسن الطفولة عريض وطويل يمتد إلى ما يقارب السن العشرين، وهو معقد في حاجاته ومعوقاته، مما يحتاج إلى دراسة وعناية من مؤسسات ذات كفاءات عالية في الحرص والصدق والوعي والخبرة.

ومهما حاولنا أن نستورد من الأفكار والتجارب في أي ميدان آخر ، فإن ميدان رعاية الطفولة والنهوض بمتطلباتها لا يقبل هذا النهج في التعامل معها، وكل محاولة لاستيراد التجارب في هذا المجال هو إضاعة للوقت والجهد معا.

[1] سورة يوسف، الآية: 10.

إننا نرى أن الحل يبدأ من تشخيص واقع الطفولة عندنا، والبيئة التي تحتضنه وتغذيه وتشكّله وفق معطياتها ومكوناتها.

ويبدو لي أن حجر الأساس الذي ننطلق منه في تشخيص واقع الطفولة هو تشخيص واقع الأسرة عندنا، وما يتهددها من مظاهر الضعف والتفكك، فبقدر نجاحنا في حماية الأسرة من المخاطر التي تعصف بها، نكون قد وفّرنا الكثير في وقاية هذه الثروة الحية والممثلة في أطفالنا.

إن الأسرة إذا ضعفت وغاب دورها في حماية الطفولة، أو مورست ضدها سياسات مقصودة لتغييب دورها أو التقليل منه، نكون قد حكمنا على الطفولة بالعقوبة القاسية.

وقد يتسلى بعضنا بالعامل الديني في حماية الطفولة ويقول لو وضعنا برامج دينية في مراكز الطفولة المسعفة لاستطعنا أن ننقذ هذه الشريحة من كثير من مظاهر الانحراف والفساد.

وهذا تقدير خاطئ وبعيد عن الواقع ، لأن هذه الشريحة من الأطفال هي في الحقيقة في وضعية بالغة الحساسية، ولا يعرفها ويقدرها قدرها إلا من عايشها عن قرب، لأن حالهم كما قال الشاعر الحكيم:

لا يعرف الحبّ إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

إن الطفل الذي يعيش خارج محيط الأسرة إذا قرأ القرءان الكريم وجد أزيد من خمسمائة آية هي خطاب للمرء في محيط أسرته، فالخطاب القرءاني في كثير من آياته هو تكليف للفرد تجاه أبيه أو أمه أو إخوته أو أبنائه، ولك أن تقرأ مثلا سورة البقرة أو سورة النساء أو سورة الأحزاب أو سورة النور وسورة الطلاق وسورة التحريم هي في بيان أحكام الأسرة وبين الحقوق والواجبات المتبادلة بين أفراد الأسرة، وإن الطفل المحروم من محيطه الأسري سيجد نفسه غير معني بهذه الخطاب القرءاني.

وهذا إذا كان الطفل متولدا عن أسرة له نسبه فيها، ولكنها تفككت لسبب من الأسباب الاجتماعية المتفشية في مجتمعنا، أما إذا كان الطفل مجهول النسب، فإن الخطب والمصيبة أكثر بكثير مما نتصور، فالطفل مجهول النسب كلما كبر سنه، وبدأ يتعرف على محيطه جعل يبحث عن أصوله، ويفتش بدافع الفطرة أو الغريزة عن عش الأسرة لينال فيه حظه من السكينة والمودة والرحمة التي ذكرها القرءان الكريم في مثل قوله تعالى **(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ**

أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (21)[1] وقوله تعالى **(هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ..)**[2]

ولنا أن تصور من جهة أخرى شعور الطفل الذي بلغ سن التمييز، وصار يقرأ القرءان الكريم ويتأدب بآدابه ويحاول أن يتخلق بأخلاقه وهو يقرأ كثيرا من الآيات كقوله تعالى: **(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (31)**[3] وقوله تعالى: **ِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (10)**[4]

وقوله تعالى: **أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (3)**[5]

إن الطفل الذي خرج من محيط العائلة وحرم من حقوقه العائلية لأي سبب من الأسباب التي ذكرتها الآيات القرءانية عندما يقرأ مثل هذه الآيات سيشعر وكأن هذه الآيات تحمله على التحريض والانتقام من هؤلاء الأفراد في المجتمع الذين سلبوه هذه الحقوق في مرحلة ضعفه وهي مرحلة الطفولة، ففي هذه الأوضاع المقلوبة في المجتمع سيصبح النص القرءاني محرضا على الانتقام، إنه انتقام الطفولة المشردة من المجتمع الذي حرمه من حقه الفطري، حق العيش في جو الأسرة والتمتع بدفء الأمومة والأبوة، ومما يروى في هذا الباب أن رجلا ذات يوم حمل ابنا له إلى الخليفة عمر بن الخطاب يشكوه إليه عقوقه، فسأل عمر بن الخطاب الابن عن سبب عقوقه، فأجاب الابن بأن أباه لم يحسن إليه في يوم من الأيام، ثم قال الابن : يا أمير المؤمنين إن أبي هذا أساء اختيار أمي حيث اختار لي أمة سوداء ، وأساء في اختيار اسمي، فسمّاني "جعلا" ولم يحسن تربيتي فلم يعلمني القراءة ولا الكتابة يومًا ما، فما كان من الخليفة عمر بن الخطاب إلا أن عبس في وجه الرجل وقال له: قم من مجلسي هذا، فلقد عققت ابنك قبل أن يعقّك.

[1] سورة الروم ، الآية: 20

[2] سورة البقرة ، الآية: 186

[3] سورة الإسراء، الآية: 31.

[4] سورة النساء ، الآية: 10.

[5] سورة الماعون، ، الآية: 1 ـ 2

(وقد أثبتت الدراسات النفسية الحديثة أن أطول الناس عمرًا هم أكثرهم تسامحا، وأقل الناس عمرًا هم الناس الأكثر انفعالا ...وإن السبب وراء كثير من الانفعالات هو إحساس المنفعل بأن الآخرين قد أساءوا إليه، وبالتالي يحاول الانفعال كردّ فعل انتقامي منهم.. ويؤكد الباحثون اليوم بان إنفاق بعض الأموال على الفقراء ومساعدتهم تكسب الإنسان شيئا من السكينة والاستقرار والاطمئنان، وتعالج لديه حدة الانفعالات.)[1] وهو ما عبّر عنه الحديث المنسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم بأن المسح على رأس اليتيم ترقق القلوب.

(وفي دراسة بجامعة تكساس أن السلوك الإيجابي يؤجل مراحل الشيخوخة، وأضاف الباحثون أن الأشخاص الذين ينظرون إلى الحياة بنظرة يملؤها الأمل تقل عندهم ظهور علامات الهرم مقارنة بالمتشائمين .. وأجرى فريق من الباحثين بجامعة تكساس تجارب على (1558) شخصا من كبار السن لبحث ما إذا كانت هناك علاقة بين الأحاسيس الإيجابية وبداية مرحلة الوهن، وفي بداية الدراسة قبل سبع سنوات كان جميع المتطوعين للمشاركة في صحة جيدة ، وقام الباحثون بقياس تطور أعراض الشيخوخة عند المشاركين من خلال قياس فقدانهم للوزن والجهد وسرعة السير وقوة قبضتهم ، وتوصل الباحثون إلى أن المشاركين الذين يحملون رؤية إيجابية للحياة كانوا أقل عرضة لأعراض الوهن من غيرهم.)[2]

(كما أن كثيرا من المعاني الإنسانية والمشاعر الرقيقة كالحنان والرحمة والميل إلى السلم والتسامح والشفقة لا تنبت إلا في حضن العائلة، ولا تنمو وتتطور إلا بالممارسة اليومية في جو الأسرة، ومن الصعب جدا أن ينال الطفل قدرا من هذه المشاعر المرهفة خارج الجو الأسري.

ولا شك أن مثل هذه المشاعر والأحاسيس تمثل عاملا حيويا في بناء المجتمعات القوية وبخاصة في المجتمعات الإسلامية، لأن الإسلام يستعين بهذه الآداب الرفيعة قبل أن يستعين بالقانون والتشريع وإن كان يتخذ من كليهما أداة للبناء والإصلاح والتغيير.)[3]

[1] د. عبد الدايم كحيل، روائع الإعجاز النفسي في القرءان الكريم، ص: 50.

[2] المصدر نفسه ، ص: 52.

[3] سيد قطب، الإسلام والسلام العالمي، دار الشروق ، القاهرة، ص: 109.

وهاهو القرءان يضرب لنا مثلا حيًّا في دور الأسرة في تربية الأبناء وتهيئتهم للحياة الكريمة التي تجعل منهم أفرادا صالحين وإيجابيين بين بني وطنهم، وهذا المثل نجده في شخص العبد الصالح لقمان الحكيم.[1]

ونظرا لأهمية الأسرة في تربية الفرد وتنشئته فإننا نجد القرءان الكريم قد أعطى مساحة واسعة جدا لإصلاح الأسرة وحمايتها من التصدع والانهيار، فنجد سورة البقرة والنساء والنور والأحزاب والحجرات والطلاق والتحريم كلها كانت مواضيعها الرئيسية في إصلاح الأسرة وتأهيلها وحمايتها من العواصف التي قد تقوّض أركانها لأسباب مختلفة.

ونجد بعض الدول المعاصرة مثل دولة ماليزيا قد قطعت شوطا معتبرا في عملية التأهيل الأسري والنهوض به إلى أعلى مستوى، ولم تبق عملية التأهيل الأسري عندهم موقوفة على جهود الجمعيات الخيرية، بل نهضت بها الجهات العلمية على مستويات عليا، حيث بادرت جامعات ذات مستويات علمية مرموقة وقدمت دراسات شاملة ومتكاملة في الموضوع، وصارت تملك رصيدا ثريا يعد أنموذجا ناجحا ويمكن الاستفادة منه، وقد كان لنا لقاء بالجهات المشرفة على هذه العملية فحدثونا بلغة الأرقام عن الجهود المبذولة في هذا الباب والنتائج المحصلة، فوجدناها مشجعة جدا، ومن ذلك حدّثونا عن جهودهم في التأهيل الأسري في جانب محاصرة ظاهرة الطلاق المبكر بعد الزواج، بحيث كانت نسبة الطلاق عندهم لا تقل عن الأربعين بالمائة ، وفي فترة قياسية نزلت هذه النسبة إلى ثلاثة بالمائة، وهي نتيجة جبارة كما نرى، ونتائجها في التقليل من الأطفال المشردين واضحة.

الشرط الثالث: وهو تفعيل دور الكفالة وتطويره وتحديثه باستمرار

وهذا يكون عن طريق هيئات تعد دراسات دورية باستمرار، ويمكن في هذا الباب أن تقدم الدولة إعانات مادية للأسر التي تكفل يتيما أو مشردا أو مجهول نسب، لأن هذا يخفف من الأعباء الملقاة على كاهل الدولة ، ولو حوّلنا نسبة من الميزانية التي تنفق على مراكز الطفولة المسعفة إلى منح توجه للأسر التي تكفل بعضا من هؤلاء الأطفال لحققنا نتائج إيجابية في عدة جوانب تعود بالفائدة على الدولة والأسرة، وعلى هذه الشريحة من الأطفال بالدرجة الأولى.

الشرط الرابع: الاستفادة من منجزات الطب الحديث في التعرف على أنساب الأطفال مجهولي الأبوين عن طريق تحليل الحمض النووي، وهنا يطيب لي أن أقترح فتح نقاش علمي معمق وناضج حول مدى مشروعية العمل

[1] انظر الآيات: 12 ـ 18 من سورة لقمان .

بمعطيات العلم والطب في معرفة النسب وإلحاق الأطفال بآبائهم، وأحسب أن بعض الهيئات العلمية ذات الشهرة الواسعة قد بادرت وسبقتنا في هذا الميدان، فأباحت الاستعانة بتحليل الحمض النووي لإثبات النسب لا لنفيه.

وإلى جانب هذه الشروط الأساسية نرى ضرورة توفير الأجواء المناسبة لإنجاحها، وهذه الأجواء تقوم على ما يأتي:

ـ نشر الآداب العامة وإشاعة الفضيلة في المجتمع للتقليل من عوامل الإثارة ومظاهر الفساد والانحراف.

ـ تيسير سبل الزواج والتشجيع المادي والمعنوي عليه، وكثير من الدول في عصرنا الحاضر تدعم الزواج، وتعرض محفزات جد مغرية للأفراد الراغبين في الزواج لما يعلمون من الفوائد المختلفة من وراء هذه المحفزات.

ـ دراسة موضوع تعدد الزوجات بموضوعية وواقعية بعيدا عن الخلفيات الضيقة.

ـ التوعية الدائمة للشباب وتعريفهم بمخاطر الانزلاق وراء النزوات ذات العواقب الوخيمة للعلاقات العاطفية غير المشروعة.

ـ ضرورة العمل الجاد لتوفير أطر قوية للتأهيل الأسري لضمان نسبة عالية في نجاح الحياة الزوجية بين الشباب المقبلين على الزواج[1]، لأن الملاحظ في أيامنا هذه هو الفشل الذريع في استمرار الحياة الزوجية، والدراسات التي تطالعنا كل يوم أن نسبة الطلاق في مجتمع الجزائري في السنة الأولى من الزواج لا تقل عن أربعين في المائة، وهو رقم مذهل ومخيف حقا، ولا يخفى على كل عاقل ما يترتب على هذه الظاهرة من أثار مدمرة على جميع المستويات، فالمجتمع الجزائري اليوم لا يعاني فقط من العنوسة في صفوف النساء أو تأخر سن الزواج عند الرجال، بل إننا اليوم نعاني عنوسة من نوع آخر، وهي كثرة الطلاق في سن مبكر مما يدفع بكثير من المطلقات إلى التمرد على المجتمع وعدم الشعور بالمسؤولية في كل سلوك ينتهجنه.

وصلى الله على نبينا وسلم والحمد لله رب العالمين

[1] وقد أطلعتنا بعض الهيئات العاملة في هذا المجال في دولة ماليزيا أن خضوع الشباب المقبلين على الزواج إلى هذه الدورات التأهيلية قد صار إجباريا ، مع اجتياز امتحان في نهاية الدورة، ومن يرسب في الامتحان لا يسمح له بإبرام عقد الزواج، وعليه أن يدخل الدورة التدريبية مرة أخرى